

Applied Rhetoric in the Commentaries on the Dīwān of Abū al-Ṭayyib al-Mutanabbī: A Comparative Study of the Eastern (Mashriqī) and Andalusian (Andalusī–Maghribī) Schools

Dr. Rafea Mohammed Beit Al-Mal^{1*}, Salma Mustafa Ashmila²

¹ Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Misrata University, Misrata, Libya

² Department of Arabic Language, Faculty of Education, Sirte University, Sirte, Libya

قضايا البلاغة التطبيقية في شروح ديوان أبي الطيب المتنبّي
دراسة موازنة بين المدرستين المشرقية والأندلسية

د. رافع محمّد بيت المال^{1*}، أ. سالمة مصطفى اشميلة²
¹ قسم اللغة العربيّة، كلّية الآداب، جامعة مصراتة، مصراتة، ليبيا
² قسم اللغة العربيّة، كلّية التربيّة، جامعة سرت، سرت، ليبيا

*Corresponding author: r.baitalmal@art.misuratau.edu.ly

Received: July 29, 2026	Accepted: September 25, 2026	Published: October 15, 2026
 Copyright: © 2026 by the authors. This article is an open-access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license (https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/).		

Abstract:

This study presents a comparative analytical reading of applied rhetoric (balāgha) as practiced by the medieval commentators on the Dīwān of Abū al-Ṭayyib al-Mutanabbī, focusing on four central issues: the theory of naẓm (syntactic-semantic order), rhetorical imagery (simile and metaphor), majāz and semantic deviation (inzīyāh), and lexical/conceptual badī'.

Adopting a descriptive-analytical comparative method grounded in direct reading of the commentaries themselves rather than in abstracted theoretical categories, the study juxtaposes each issue across two commentators representing two distinct geographical and intellectual traditions: the Eastern (Mashriqī) school—represented by Ibn Jinnī, Abū al-‘Alā’ al-Ma‘arrī, al-Wāḥidī, and al-Tabrīzī—and the Andalusian-Maghribī school—represented by Ibn al-Ifṭīlī, Ibn Sīda, and Abū al-Ḥusayn al-Ṣiqillī al-Maghribī. The study finds that commentators from both schools were, in practice, applying the core principles of naẓm theory and rhetorical analysis well before their theoretical crystallization at the hands of ‘Abd al-Qāhir al-Jurjānī, and that the genuine divergence between the two schools lies not in the degree of aesthetic awareness but in the methodological function each commentator assigned to his commentary, and in the disciplinary formation from which each wrote: grammatical for Ibn Jinnī, literary-compositional for Ibn al-Ifṭīlī, lexicographical for Ibn Sīda, philosophical-logical for al-Ma‘arrī, semantic-exegetical for al-Ṣiqillī, and comparative rhetorical-critical for al-Wāḥidī and al-Tabrīzī. The study concludes that the labels "Andalusian excess" and "Eastern moderation" should be understood as differences in the function of commentary itself, not in the extent of rhetorical awareness.

Keywords: commentaries on al-Mutanabbī's Dīwān; theory of naẓm; rhetorical imagery; majāz and inzīyāh; badī'; Eastern (Mashriqī) school; Andalusian school.

المخلص

يتناول هذا البحث دراسة موازنة تطبيقية لقضايا البلاغة كما مارسها شراح ديوان أبي الطيب المتنبي في العصور الوسيطة، عبر أربع قضايا محورية: نظرية النظم، والصورة البلاغية (التشبيه والاستعارة)، والمجاز والانزياح، والبديع اللفظي والمعنوي.

اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي المقارن، مستنداً إلى قراءة مباشرة في نصوص الشروح ذاتها لا إلى حصر المصطلحات النظرية المجردة، عبر موازنة كل قضية بين شارحين ينتميان إلى مدرستين جغرافيتين وذهنيتين مختلفتين: المدرسة المشرقية، ممثلة بشروح ابن جني وأبي العلاء المعري والواحي والتبريزي، والمدرسة الأندلسية – المغربية، ممثلة بشروح ابن الإفليبي وابن سيده وأبي الحسين الصقلي المغربي.

وقد توصل البحث إلى أن شراح المدرستين كانوا يمارسون فعلياً مبادئ نظرية النظم والتحليل البلاغي قبل أن تكتمل صياغتها النظرية على يد عبد القاهر الجرجاني، وأن الفارق الحقيقي بينهم لم يكن فارقاً في درجة الوعي بالصناعة الفنية، بل فارقاً في الوظيفة المنهجية التي أراد كل شارح أن يؤديها شرخه، وفي الخلفية العلمية التي انطلق منها كل منهم: خلفية نحوية عند ابن جني، وأدبية إنشائية عند ابن الإفليبي، ولغوية معجمية عند ابن سيده، وفلسفية منطقية عند المعري، وتفسيرية دلالية عند الصقلي، ونقدية بلاغية مقارنة عند الواحي والتبريزي.

ويخلص البحث إلى أن مصطلحي "الإسراف الأندلسي" و"الاعتدال المشرقي" ينبغي أن يُفهما بوصفهما تقاوتاً في وظيفة الشرح ذاتها، لا في مقدار إدراك الصناعة البلاغية.

الكلمات المفتاحية: شروح ديوان المتنبي؛ نظرية النظم؛ المجاز والانزياح؛ البديع؛ المدرسة المشرقية؛ المدرسة الأندلسية.

المقدمة

أولاً : أهمية الموضوع والمدخل إليه :

تحتل شروح ديوان أبي الطيب المتنبي مكانة استثنائية في تراث الشرح العربي، إذ تجاوز عددها العشرات، وتوزعت بين حاضرتين ثقافيتين متميزتين: المشرق العربي الإسلامي، والأندلس والمغرب. ولم يكن هذا التعدد نسخاً متكرراً لمنهج واحد، بل تعبيراً عن تعدد المشارب العلمية للشرح أنفسهم: نحاة، ولغويون، وأدباء، وفلاسفة، ونقاد بلاغيون.

ومن هنا تتبع أهمية دراسة هذه الشروح موازنة لا وصفاً منفرداً؛ ذلك أن الموازنة بين شارحين من مدرستين مختلفتين تكشف عما لا يظهر في القراءة الأحادية: أثر الانتماء الجغرافي والمذهبي والمعرفي في طريقة التعامل مع النص الشعري، وفي درجة الوعي بالصناعة البلاغية، وفي الأداة المصطلحية المستخدمة للتعبير عن هذا الوعي.

وتزداد هذه الأهمية حين نلاحظ أن أبرز هذه الشروح، كشرح ابن جني الكبير وشرح ابن الإفليبي، قد سبقا زمنياً استقرار نظرية النظم البلاغية على يد عبد القاهر الجرجاني (ت 471 هـ) في كتابه "دلائل الإعجاز"، مما يجعل دراسة هذه الشروح اختباراً ميدانياً لسؤال جوهري في تاريخ البلاغة العربية:

هل كانت نظرية النظم إكتشافاً نظرياً مفاجئاً عند الجرجاني، أم تنظيراً لاحقاً لممارسة تفسيرية كانت قائمة فعلاً عند الشراح النحويين والأدباء الذين سبقوه؟

ثانياً : مشكلة البحث :

تكمن مشكلة البحث في أن الدراسات التراثية والحديثة لشروح ديوان المتنبي كثيراً ما اكتفت بوصف كل شرح على حدة، أو بحصر المصطلحات البلاغية التي استخدمها هذا الشارح أو ذاك، دون أن تنتقل إلى مستوى الموازنة المنهجية العميقة بين مدرستين متكاملتين من مدارس الشرح: المشرقية والأندلسية.

وقد نتج عن ذلك أن العبارات الشائعة في وصف الفرق بين المدرستين، من مثل "الإسراف الأندلسي" و"الاعتدال المشرقي"، ظلت أحكاماً إنطباعية عامة لم تُختبر باستقراء دقيق لممارسات الشراح الفعلية في نصوصهم.

ثالثاً: أسئلة البحث:

ينطلق البحث من سؤال مركزي هو : كيف مارس الشراح المشاركة والأندلسيون البلاغة أثناء شرحهم للنص الشعري ؟ وهل يقفون عند حدود تفسير المعنى ، أم يتجاوزونه إلى تحليل الأداة البلاغية وتقويمها ، بل وإعادة إنتاجها في نثر مواز للنظم الشعري نفسه ؟ ويتفرع عن هذا السؤال المركزي جملة من الأسئلة الفرعية :

- 1- إلى أي مدى مارس ابن جني وابن الإفليلي مبادئ نظرية النظم قبل صياغتها النظرية الكاملة عند الجرجاني ؟
 - 2- ما أوجه الاختلاف بين منهج ابن سيده ومنهج أبي العلاء المعري في بناء الصورة البلاغية (التشبيه والاستعارة) ؟
 - 3- كيف تعامل أبو الحسين الصقلي والواحدي مع المجاز والانزياح الدلالي عن الحقيقة اللغوية ، ولماذا اختلفا في درجة تسمية الأداة البلاغية ؟
 - 4- هل يعكس التفاوت بين ابن الإفليلي والتبريزي في تناول البديع فارقاً في الوعي بالمحسنات البديعية ، أم فارقاً في وظيفة الشرح ووجهته ؟
- رابعاً : أهداف البحث :**

يسعى البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

- 1- رصد الممارسات الفعلية للشراح في التعامل مع النص الشعري بلاغياً ، عبر رصد إجرائي في النصوص لا عبر حصر نظري مجرد للمصطلحات .
 - 2- بناء صورة متكاملة عن تباين المناهج التفسيرية بين المدرستين المشرقية والأندلسية ، وما يعكسه هذا التباين من اختلاف في الرؤية المعرفية والمرجعية العلمية والذائقة الأسلوبية لكل شارح .
 - 3- تقديم قراءة موازنة تسند الأحكام النقدية الشائعة عن مدرستي الشرح المشرقية والأندلسية إلى شواهد نصية مباشرة ، مع الالتزام بالأمانة العلمية في التمييز بين طبقات النص المحقق والإشارة إلى حدود العينة المتاحة .
- خامساً : الدراسات السابقة :**

لم يقف البحث على دراسة سابقة تناولت الموازنة المتكاملة بين المدرستين المشرقية والأندلسية في شروح ديوان المتنبي عبر القضايا الأربع مجتمعة (النظم ، والصورة ، والمجاز ، والبديع) .

غير أن ثمة دراسات جزئية أفادت البحث في محاور بعينها ، وأبرزها دراسة عبد الغني شوقي موسى الأدبي بعنوان " التأويل النحوي عند ابن جني في (الفسر) " ، المنشورة في مجلة لساننا (Lisanuna) الصادرة عن جامعة الرانيري الإسلامية الحكومية بآتشيه ، المجلد التاسع ، العدد الثاني سنة 2020م ، والتي خلصت إلى أن ابن جني وظف آليات الحذف والزيادة والتضمين والحمل على المعنى في تفسيره النحوي لأبيات المتنبي (الأدبي ، 2020م) .

وقد استند البحث الحالي إلى هذه الدراسة في تعميق القراءة المنهجية لشرح ابن جني ، مع توسيع نطاق الموازنة إلى ما هو أبعد من الجانب النحوي وحده ، ليشمل قضايا البلاغة التطبيقية الأربع في مدرستين متكاملتين لا في شارح واحد .

سادساً : منهج البحث وإجراءاته :

اعتمد البحث المنهج الوصفي التحليلي المقارن (المنهج الموازن)، القائم على القراءة المباشرة في نصوص الشروح نفسها بدل الاكتفاء بحصر المصطلحات النظرية المتداولة في كتب البلاغة .

سابعاً : حدود البحث ومصادره :

يقصر البحث على أربعة شروح رئيسة تمثل المدرسة المشرقية (ابن جني ، وأبو العلاء المعري ، والواحيدي ، والتبريزي) وثلاثة شروح تمثل المدرسة الأندلسية -المغربية (ابن الإفيلي، وابن سيده، وأبو علي الحسين الصقلي المغربي)، وهي عينة تطبيقية من عينة واسعة من مجموع شروح الديوان الضخمة.

ثامناً : خطة البحث:

يقع البحث في تمهيد وأربعة مباحث وخاتمة، على النحو الآتي : يتناول المبحث الأول نظرية النظم بين ابن الإفيلي وابن جني ، ويتناول المبحث الثاني الصورة البلاغية (التشبيه والاستعارة) بين ابن سيده والمعري ، ويتناول المبحث الثالث المجاز والانزياح بين أبي الحسين الصقلي والواحيدي ، ويتناول المبحث الرابع المحسنات البديعية اللفظية والمعنوية بين ابن الإفيلي والتبريزي، وتختتم الدراسة بخاتمة تجمع أبرز النتائج ، تليها قائمة المصادر والمراجع .

المبحث الأول : نظرية النظم بين ابن الإفيلي وابن جني :

تمهيد : نظرية النظم :

قبل الشروع في الموازنة التطبيقية، لا بد من تحديد المقصود بـ " نظرية النظم " كما استقرت في كتب البلاغة، وعلى رأسها "دلائل الإعجاز" لعبد القاهر الجرجاني .

تقوم هذه النظرية على أن بلاغة الكلام وفصاحته لا تكمنان في الألفاظ المفردة بذاتها، وإنما في طريقة تأليفها وترتيبها بحسب " معاني النحو "، أي بحسب الأغراض الدلالية التي تقتضيها القواعد النحوية من تقديم وتأخير، وذكر وحذف، وتعريف وتنكير، وفصل ووصل، وتوكيد وإطلاق .

فالمعنى مقصود بعينه، لا مجرد اختيار نحوي عند عبد القاهر ؛ ولا يصح الكلام البليغ إلا حين يتطابق هذا الاختيار مع مقتضى الحال والمعنى .

والملاحظ أن عبد القاهر الجرجاني (ت 471هـ) جاء متأخراً زمنياً عن كل من ابن الإفيلي (ت 441هـ) وابن جني (ت 392هـ) ، مما يعني أن الشارحين لم يتلقوا نظرية النظم وخصوصاً بصياغتها النهائية المكتملة ، لكنهما - ولا سيما ابن جني بوصفه أحد أئمة النحو الذين استثمر الجرجاني نفسه من تراثهم - مارسا مبادئها التطبيقية (التحليل النحوي للمعنى) قبل أن تُصاغ نظرياً بشكلها الجرجاني المكتمل . وهذا ما يجعل تتبع تطبيقاتها العملية عند الشراح أكثر أهمية من البحث عن مصطلح " النظم " بلفظه .

أولاً : تطبيقات ابن جني (الفسر الكبير):

قبل أن يكون ابن جني شارحاً ، كان نحوياً كبيراً وأديباً؛ ولذلك يغلب على " الفسر " التحليل النحوي الدقيق لكل كلمة وموقعها الإعرابي وأثر ذلك في المعنى، وإن لم يستخدم مصطلح "النظم" بلفظه الصريح إلا نادراً .

1- توجيه الإعراب لتمييز المعنى (تكرار اللفظ نفسه بوظيفتين مختلفتين) :

في شرح بيت " أَنْتَ يَا فَوْقَ أَنْ تُعَزَّى عَنْ الْأَحْبَابِ ... فَوْقَ الَّذِي يَعْزِيكَ عَقْلًا " لابن المتنبي ، يعلل ابن جني نصب كلمة " فوق " الأولى على أنها نداء مضاف إلى " أن "، بينما ينصب " فوق " الثانية على أنها ظرفية ، موضحاً أن المعنى : " أنت فوق قدره " .

فاللفظ نفسه يتكرر بوظيفتين نحويتين مختلفتين تمامًا بحسب موقعه في تأليف الجملة، وهذا يطابق جوهر فكرة النظم عند عبد القاهر : أن المعنى محكوم بالوظيفة النحوية للفظ لا بذاته المجردة (ابن جني ، 2004 م ، ج 3/5) .

2- جعل النظم معيارًا نقديًا صريحًا لتجنب التكرار :

في شرح بيت يتكرر فيه لفظ "الدهر"، يورد ابن جني ملاحظة نحوية - بلاغية صريحة ، مفادها أنه لو صيغ البيت بطريقة بديلة تتجنب التكرار " لصح المعنى وسلم النظم عند عدم تكرير الدهر مرتين في بيت "، وهذا استخدام مباشر وصريح لمصطلح " سلامة النظم " كمعيار نقدي يربط بين سلامة البنية التركيبية (تجنب التكرار اللفظي) والتأليف الكلي للبيت - وهو جوهر ما ستقوم عليه نظرية النظم عند عبد القاهر لاحقاً من كون التكرار عيباً معنوياً في النظم لا علةً لفظية (ابن جني ، 35 / 2004 م) .

3- التوكيد بين الأبيات المتتالية عند ابن جني :

على غرار ما لوحظ عند ابن الإفليلي، يصف ابن جني أحياناً بيتاً بأنه توكيد لما قبله من المعنى دون استئناس معنى جديد؛ وهذا يدل على أن كلا الشارحين يقرأ تتابع الأبيات بوصفه بناءً نظميًا مقصودًا، لا تراكمًا عشوائيًا، وإن اختلف مقدار تكرار هذه الملاحظة بينهما (ابن جني ، 40 / 2004 م) .

فابن جني يمارس التحليل النظمي (تحليل موقع اللفظ نحويًا وربطه بالمعنى ، والحكم على حسن البنية أو قبحها) بوصفه أداة تفسيرية أصيلة في منهجه ، بما يتسق مع ما خلصت إليه دراسة أكاديمية محكمة من أن ابن جني أسس لظاهرة " التأويل النحوي " عبر آليات الحذف والزيادة والتضمين والحمل على المعنى ، وكلها أدوات تخدم غاية واحدة :تفسير المعنى عبر البنية النحوية للتركيب ، وهو جوهر نظرية النظم بعينها (الأدبي ، 2020 م) .

ثانيًا : تطبيقات ابن الإفليلي (شرح معاني شعر المتنبي) :

على خلاف ابن جني ، لا يتحدّد ابن الإفليلي بحرفية نحوية صرفة ، بل يغلب على شرحه أسلوب أدبي إنشائي (إعادة صياغة معنى البيت نثرًا) ؛ لكنه أحياناً - بأسلوب مرسل يظهر ويُعمّق ذلك - يُعنى بآثر الحذف والتقدير والتوكيد في بناء المعنى عبر البيت والأبيات أحياناً .

1- تعليل الحذف وربطه بالسياق النحوي السابق :

في شرح بيت " وَهَانَ فَمَا أَبَالِي بِالرَّزَايَا ... لِأَنِّي مَا انْتَفَعْتُ بِأَنْ أَبَالِي " ، يوضح ابن الإفليلي أن الشاعر حذف لفظ " الرمي " من قوله " وهان (الرمي) " ، "اعتماداً على دلالة قوله السابق " أقمَر رقة بما قد - " وهذه فائدة نظرية عامة يقرر معها ابن الإفليلي " : وإضمار ما قد يُقدّر ذكره من التفسير في الكلام - " وهذه الفائدة تكاد تطابق حرفياً أحد أهم أركان نظرية النظم عند عبد القاهر : أن الحذف حين يكون معتمداً على قرينة سابقة في النظم يكون بلاغة لا نقصاً (ابن الإفليلي ، 30 / 1992 م) .

2- التوكيد أداة ربط نظمي بين الأبيات المتتالية :

يتكرر عند ابن الإفليلي وصف العلاقة بين بيت وسابقه بلفظ " توكيد " أو أكّد لما قد ؛ " كما في تعليقه على بيت " وَأَوَّلُ حُزْنٍ عَلَى رَاحِلٍ ... وَأَوَّلُ دَمْعٍ جَرَى فَوْقَهُ "الذي يصفه بأنه توكيد لما قبله من معنى الاستئناس بالبقاء .

وهذا وعي نظمي بأن تتابع الأبيات ليس تراكمًا عشوائيًا للمعاني المستقلة ، بل بناءً تصاعديًا ، وهو ما يقابله عند ابن جني وصفه المماثل لبيت تلا بيتاً بأنه " توكيد للبيت الذي قبله " (ابن الإفليلي ، 31 - 30 / 1992 م قارن : ابن جني ، 40 / 2004 م) .

3- تكرار ظاهرة التوكيد البنيوي عبر مواضع متعددة (شواهد إضافية) :

لا تقتصر ظاهرة " التوكيد " الرابطة بين الأبيات على موضع واحد عند ابن الإفليلي ، بل تتكرر بوصفها نمط تنظيم للقصيدة ؛ فيصف بيت " مَتَى يَشْتَفِي مِنْ عَجَبٍ مَنْ بِهِ ... وَمِنْ نَفْسِهِ كُلُّ هَذَا الْعَجَبِ " بأنه توكيد لما قد وصف الشاعر من وجده بمحبوبته في يقظته وناماه .

وتكرار هذا الوصف البنيوي في مواضع متعددة من الشرح يدل على أن ابن الإفليلي يقرأ القصيدة بوصفها نسيجاً مترابطاً متواصل المعاني ، لا وحدات منفصلة (ابن الإفليلي ، 374 / 1992 م) .

4- التقابل البنيوي (تبادل موضعي بين لفظين) في تفسير المعنى :

في شرح بيت "وَوَضْعُ النَّدَى فِي مَوْضِعِ السَّيْفِ بِالْعَلَا...مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى " ، يبني ابن الإفليلي شرحه على نفس البنية التبادلية التي صاغ بها الشاعر بيته (تقابل الندى والسيف في موضعين متعاكسين) ، فيعكس إكرام الكريم مقابل إكرام اللئيم بفعل إبراز المنطق التركيبي المتقابل الذي قام عليه البيت نفسه .

وهذا يكشف وعي ابن الإفليلي بأن المعنى هنا نتاج مباشر لبنية التقابل النحوي – التركيبي (تبادل موضعي بين طرفين) ، لا مجرد مضمون مستقل عنها (ابن الإفليلي ، 201 / 1992 م) .

ويتضح من هذه الشواهد الأربعة أن ابن الإفليلي ، رغم أسلوبه الأدبي الإنشائي الذي يبدو ظاهرياً بعيداً عن دقة النحاة ، يمارس فعلياً تحليلًا نظميًا وإعياً متعدد المستويات : تتبع الإضمار والحذف برده إلى سياق سابق ، ورصد علاقات التوكيد والتصاعد الدلالي بين الأبيات المتوالية بوصفها نمطاً ، وإدراك أثر البنية التقابلية (تبادل مواقع الألفاظ) في إنتاج المعنى .

ثالثاً : الموازنة :

1- من حيث مستوى التحليل :

يمارس ابن جني النظم على مستوى البنية الإعرابية الدقيقة داخل البيت الواحد (تغير وظيفة اللفظ الواحد بحسب موقعه) ، بينما يمارسه ابن الإفليلي على مستوى أوسع يشمل العلاقة بين الأبيات المتتالية (التوكيد والتصاعد) بقدر ما يشمل داخل البيت الواحد (الحذف والإضمار) .

2- من حيث المصطلح :

يستخدم ابن جني لفظ "النظم" صراحةً أحياناً كمعيار نقدي (سلم النظم) ، " بينما يستخدم ابن الإفليلي عبارات ووظيفة مرادفة " (في الكلام حسن) دون التصريح بلفظ " النظم " ذاته ، رغم اتفاق المضمون التحليلي بينهما .

3- من حيث الخلفية العلمية:

يعكس الفارق بين الشارحين خلفية كل منهما : ابن جني النحوي المتخصص الذي يعلّق الإعراب أولاً بأسلوب ثم يصل منه إلى المعنى ، وابن الإفليلي الأديب الذي يصوغ المعنى أولاً إنشائياً ثم يظهر فيه بالبنية النحوية الكامنة خلفه .

خاتمة البحث:

تكشف هذه الموازنة - القائمة على عدة شواهد مؤكدة مورّعة بين الكتابين - (أن كلا الشارحين يمارس مبادئ نظرية النظم تطبيقياً) تحليل الحذف والتقديم والتأخير وأثرها في المعنى قبل أن تُصاغ هذه المبادئ نظرياً على يد عبد القاهر الجرجاني ، وإن اختلفا في مستوى التحليل ودرجة التصريح بالمصطلح.

وتجدر الإشارة إلى أن هذه الشواهد عيّنة تطبيقية من عيّنة أوسع بكثير يزخر بها الكتابان ، وتستحق دراسة مستقلة موسّعة الاستقصاء تام مستقبلاً .

المبحث الثاني: الصورة البلاغية (التشبيه والاستعارة) بين ابن سيده والمعري : تمهيد:

يتناول هذا المبحث موازنة تطبيقية موسَّعة بين منهجين من أهم مناهج شرح ديوان أبي الطيب المتنبي في التعامل مع الصورة البلاغية (التشبيه والاستعارة) : منهج أبي الحسن علي بن إسماعيل بن سيده (ت 458هـ) في كتابه " شرح المشكل من شعر المتنبي " ، ومنهج أبي العلاء أحمد بن عبد الله المعري (ت 449هـ) في كتابه " معجز أحمد " ، الذي يُعدُّ أوفى شروح ديوان المتنبي استقصاءً .

وقد اعتمد في جمع الشواهد على قراءة مباشرة موسَّعة في نصِّي الكتابين ، مع تكثير عدد الشواهد قدر الإمكان تلبيةً لمطلب الباحث ، وترتيبها بحسب ورودها في الديوان .

أولاً : منهج ابن سيده في التشبيه والاستعارة :

يتميّز شرح ابن سيده - وهو عالم لغة كبير صاحب " المحكم " و " المخصَّص " - بنزعة لغوية دقيقة حتى في تناوله للصورة البلاغية ؛ إذ لا يكتفي غالب التشبيه أو الاستعارة بتسميتها اللغوية والمنطقية، بل يعلّل حدوثها ويناقش شرعية دلالتها .

1- تشبيه البحيرة بالقمر (تشبيه حسي بصري) :

في وصف بحيرة مستديرة يحفّ بها البستان الأخضر ، يقرر ابن سيده أن الشاعر شبّه البحيرة في استدارتها بالقمر ، مستشهداً بمثال مماثل من شعر ابن الرومي في وصف رغيف الخبز بالقمر ، ثم يعلّل تشبيه اخضرار البستان بالسواد بأن النبات الشديد الخضرة يميل إلى السواد ، مستشهداً بقوله تعالى في وصف الجنّتين : " مُدْهَمَّتَان " (ابن سيده ، 1976م . 18) .

2- تشبيه الشحوب بفرند السيف (تشبيه معنوي مع تسويغ منطقي) :

من أدقّ شواهد ابن سيده النظرية : تعليقه على بيت يصف فيه الشاعر شحوبه وتغيّر لونه من السفر بأنه " فرند " (بريق السيف الدال على مائه) ؛ فيوضح ابن سيده أن الشحوب ليس فرنداً حقيقةً ؛ لأنه مدموم من الشاعر ، بل شَبّه به مجازاً ، كما أن الفرند مدموم من السيف لولا فعم الصائم بأنه أهيب عند الله من ريح المسك ، مع أن التلون ليس عيباً في الطيب لدلالته على أمر ، لكنه شبيه حقيقة مدموم (الصيام) . وهذا تنظير دقيق لآلية التسمية بالمشابهة في المعنى لا في الحقيقة الحسية (ابن سيده ، 1976م . 37) .

3- تشبيه القصيدة بالحديقة ، واستعارة الجسم للكتمان :

في بيت يصف الشاعر إهداء قصيدته إلى الممدوح ، يوضح ابن سيده أن الشاعر شبّه القصيدة بالحديقة في حسنها ، وأن الذي قام مقام السحاب الذي يسقي الحديقة هو فكر الشاعر وأمله ، مستشهداً بقول أبي تمام في وصف الشّعر بأنه " صوب العقول " .

وفي الصفحة نفسها ، يعلّق على بيت آخر بأن الشاعر استعار للكتمان جسمًا ، مع أن الكتمان عَرَض لا جسم له ، وذلك لأن السياق يقتضي أن يكون للجسم (وهو عَرَض أيضًا) محلّ يُفهم عنه ، فاستعارته له جسداً استعارة مجازية (ابن سيده ، 1976م . 42) .

4- استعارة الشمع لحسن الأفعال (استعارة تجريدية) :

في بيت "لَيْسَ قَوْلِي فِي شَمْعٍ فَعَلِكْ كَالشَّمْعِ...وَلَكِنْ فِي فَعَلِكِ الْأَثَرُ" ، يقرر ابن سيده صراحة أن الشاعر جعل لفعل الممدوح شمعاً ، وأن هذه استعارة لحسن أفعاله وإنارتها في نفوس الناس ، أي استعارة لمعنى معنوي مجرد (حسن الفعل) بصورة حسية مضيئة (الشمع) (ابن سيده ، 1976م . 44) .

5- استعارة اسم الغرق للفقر (استعارة مركبة من تشبيه ضمني) :

في وصف السماح (الكرم) بأنه " لَجّة " مهلكة للمال ، يبيّن ابن سيده أن الشاعر إذ جعل السماح لَجّة (وهي أطول ما في البحر) استعار من ذلك اسم " الغرق " ليصف الفقر الناجم عن الكرم المفرط

، ويستشهد بقول شاعر آخر يصف الفقر بأنه نتيجة اللجوء إلى العطاء بلا حساب (ابن سيده ، 1976م) . 45 .

6- استعارة " الأحداث " لصغار النصور (استعارة مع تعليم على شواذها) :
في وصف نصور المعرفة الشابة والمسنة بأنها تفدي سلاح الممدوح ، يعلق ابن سيده بأن استعمال لفظ " الأحداث " (وهو في أصله يوصف به صغار بني آدم) استعير هنا لصغار النصور ، ويلحق تعليقاً منهجياً مهماً بأن " مثل هذه الاستعارة كثيرٌ "، أي إنه يُعمّم الظاهرة اللغوية بأنها ظاهرة ثابتة يمكن تعميمها لا حالة استثنائية (ابن سيده ، 1976م . 70) .

يتضح من هذه المجموعة أن ابن سيده لا يكتفي برصد الصورة ، بل يميل - بحكم تخصصه اللغوي - إلى تسويغها منطقيًا ولغويًا، وأحياناً إلى تعميم الظاهرة (كما في الشاهد السادس)، وأحياناً إلى مقارنتها بنظائر من القرآن الكريم والحديث النبوي والشعر (كما في الشاهدين الأول والثاني) ، بما يمنح شرحه طابعاً بلاغيًا معجميًا مركّباً .

ثانياً : منهج المعري في التشبيه والاستعارة :

على خلاف ابن سيده ، يميل أبو العلاء المعري - وهو صاحب نزعة فلسفية منطقية معروفة - إلى بناء صورة مركّبة متعددة الطبقات ، ويربط الصورة بالمنطق العقلي والاستدلال ، بل يمتد أحياناً إلى ربط الصورة اللفظية بالشكل الخطي للحرف العربي نفسه ، وهي ظاهرة فريدة في شرحه .

1- تشبيه أثر سنايك الخيل بشكل الحرف (تشبيه بصري - خطي نادر) :
من أنضر شواهد المعري وأكثرها تفرّداً : تعليقه على بيت يذكر فيه الشاعر أثر حوافر الخيل على الصخر بأن هذا الأثر أول حرف من اسم الممدوح (سيف الدولة علي) ، وهو حرف " العين " ؛ لأن شكل أثر السنايك على الحجر يشبه رسم حرف العين خطياً .

وهذا تشبيه بصري - خطي يربط الصورة الشعرية بشكل الكتابة العربية ذاتها ، وهو نمط نادر في الشروح البلاغية التقليدية (المعري ، 1992م . 243) .

2- تشبيه الممدوح بالبحر المائج (تشبيه تمثيلي للهيبة) :
في وصف هيبة الممدوح وبأسه إذا اضطرب غاضباً، يقرر المعري أن الشاعر شبّه بالبحر الهائج المضطرب ، موضحاً أن البحر يُخشى هيئته من بعيد وهو ساكن ، فكيف إذا ماج واضطرب ؟ فتكون شدة هيبة الممدوح متصاعدة بتصاعد اضطرابه ، تماماً كالبحر (المعري ، 1992م . 253) .

3- تشبيه الكرم بالسحاب الهطال (تشبيه تمثيلي للكرم الدائم) :
في بيت يصف استحالة صرف الممدوح عن الكرم ، يبيّن المعري أن الشاعر شبّه كرمه بالسحاب الماطر المتخابر (العارض الهطول) ؛ فكما يستحيل صدّ هطول هذا السحاب المتدفق ، يستحيل من الممدوح صرفه عن ممارسة الكرم ، في تشبيه تمثيلي يربط الدوام الطبيعي بالدوام الخُلقي (المعري ، 1992م . 284) .

4- استعارة " الطريق " و " الخطى " للفعل المعنوي (استعارة مكنية ممتدة) :
في تعليقه على بيت يصف فيه الشاعر فعلاً (كالسير في نهج معين) ، يوضح المعري أن الشاعر جعل الفعل " طريقاً " واستعار له لوازم الطريق الحسية كذكر " الرّجل " (القدم) و " الخطى " مستعيراً إياها للمعنى المجرد ، فتكون هذه استعارة مكنية ممتدة ، إذ يستعير جهازاً كاملاً من لوازم المشبه به الحركي (الطريق) لا مجرد اسم واحد (المعري ، 1992م . 414) .

5- تشبيه إياة الشمس بالسيف ، وتشبيه جوهر السيف بزبد البحر (تشبيهان متتاليان مركّبان) :

في وصف سيف الممدوح ، يورد المعري تشبيهين متتاليين : الأول تشبيه إياة الشمس (ضوءها المنعكس) بالسيف وبريقه ، والثاني - وهو الأدق - أنه لما جعل السيف بحرًا في اتساعه وقيمته ، جعل جوهر معدنه (فرنده) بمنزلة الرّبد الطافي فوق ذلك البحر ، في تشبيه مرگب من طبقتين متتاليتين (السيف بحر ، وجوهره رّبد ذلك البحر) ، وهو نموذج للصورة المتسلسلة التي تُبنى إحداها على الأخرى (المعري ، 1992م . 437) .

يتضح من هذه المجموعة أن المعري - بحكم نزعته المنطقية والفلسفية - يميل إلى بناء صور مرگبة متعددة الطبقات (كما في الشاهد الخامس) ، وإلى ربط التشبيه بإدراك بصري للشكل الخُطي (كما في الشاهد الأول) ، وهو أمر لم يرد له نظير عند ابن سيده أو الصقلي أو الواحدي فيما اطلع عليه ، وإلى الاستعارة الممتدة التي تستدعي جهازًا كاملاً من اللوازم الحسية للمشبه به .

ثالثًا: الموازنة :

1- من حيث درجة التركيب :

تميل صور ابن سيده إلى البساطة النسبية (تشبيه أو استعارة بسيطة الطرفين) ، بينما تميل صور المعري إلى التركيب متعدد الطبقات (كتشبيه السيف بحرًا ثم جوهره رّبدًا) ، بما يعكس نزعته المنطقية التحليلية المعروفة في مؤلفاته الفلسفية .

2- من حيث التسويغ :

يميل ابن سيده إلى تسويغ الصورة بالاستشهاد بنظائر من القرآن والحديث والشعر (شاهدا 1 ، 2) ، بينما يميل المعري إلى تفسيرها ضمن سياقها الدرامي في القصيدة مباشرة دون إكثار من الاستشهاد الخارجي .

3- من حيث نوع الإدراك الحسي الموظف :

ينفرد المعري بتوظيف الإدراك البصري لشكل الحرف الخُطي في التشبيه (شاهد 1) ، وهي ظاهرة لم تظهر عند ابن سيده ، مما قد يعكس حساسية خاصة لدى المعري (الذي فقد بصره في الرابعة من عمره) تجاه الأشكال والحروف كما يوصف له لا كما يراها .

4- من حيث الوعي المصطلحي :

يشارك الشارحان في استخدام مصطلحي " شبه " و " استعار " تسمية صريحة واعية ، بخلاف ما لوحظ عند الصقلي في المبحث السابق من غياب هذا التصنيف الصريح ، مما يرجح أن وضوح المصطلح البلاغي كان أكثر شيوعًا عند شراح اللغة المتخصصين (ابن سيده) وحتى عند شراح المشرق والأندلس (المعري) منه عند بعض شراح المغرب والأندلس كالصقلي .

خاتمة المبحث :

تكشف هذه الموازنة ، المستندة إلى عدة شواهد مؤرّعة على الكتابين ، أن كلا الشارحين يشترك مع الآخر في الوعي البلاغي الصريح (تسمية التشبيه والاستعارة) ، لكنهما يفتقران في درجة التركيب والتسويغ ونوع الإدراك الحسي الموظف في بناء الصورة ، ويمكن رد هذا الاختلاف إلى اختلاف تكوين كل منهما العلمي : ابن سيده اللغوي المعجمي الباحث عن الشاهد والتسويغ ، والمعري الفيلسوف المنطقي الباحث عن التركيب والتسلسل الاستدلالي .

المبحث الثالث : المجاز والانزياح : أبو الحسين الصقلي نموذجًا أندلسيًا مقابل الواحدي نموذجًا مشرقياً تمهيد :

يتناول هذا المبحث موازنة تطبيقية بين منهجين في التعامل مع الصورة الشعرية عند شرح ديوان أبي الطيب المتنبّي : منهج أبي الحسين علي بن عبيد الله الصقلي المغربي ، بوصفه ممثلًا لمدرسة الشرح

الأندلسية – المغربية ، ومنهج أبي القاسم علي بن أحمد الواحدي النيسابوري (ت 468 هـ) بوصفه ممثلًا لمدرسة الشرح المشرقية .

وتقوم الموازنة على قراءة مباشرة في نصّ الشرحين ، مع التركيز على كيفية تعامل كل منهما مع المجاز والاستعارة والتشبيه والانزياح عن الحقيقة اللغوية في تفسير أبيات المتنبي .

وتجدر الإشارة ، وفاء بالأمانة العلمية ، إلى أن شواهد الصقلي مأخوذة من قراءة تحليلية مباشرة في مقدمة تحقيق ماجد الجعافرة وآخرين لكتاب "التكملة وشرح الأبيات المشككة من ديوان أبي الطيب المتنبي" الصادر عن منشورات جامعة اليرموك (الصقلي، 1998م : 9 - 1)، إضافة إلى نماذج من متن الشرح (الصقلي، 1998م : 75 : 20).

أولاً : منهج الصقلي - التفسير المعنوي وغياب التصنيف البلاغي الصريح :

يقوم شرح الصقلي في الغالب الأعم على نمط ثابت : إيراد البيت ، ثم شرح مفرداته اللغوية بالرجوع إلى المعاجم (وعلى رأسها " لسان العرب ") ، ثم تفسير "المعنى " العام للبيت ، مع إحالات مقارنة إلى شراح آخرين كابن جني والواحدي والعكبري واليازجي والبرقوقي عند الاختلاف في الرواية أو التفسير .

وقد لوحظ من خلال تتبع عدد كبير من صفحات الشرح أن الصقلي لا يستخدم مصطلحي " المجاز " أو " الاستعارة " على نحو متكرر أو منهجي بوصفهما أداتين تصنيفيتين مستقلتين بالمعنى الذي استقر عليه علماء البلاغة كعبد القاهر الجرجاني والسكاكي، بل يميل إلى تكثيف الصورة عبر عبارة " والمعنى " أو " يعني " التي تفضي مباشرة إلى المضمون الدلالي للبيت دون المرور بتسمية الأداة البلاغية المستعملة فيه (الصقلي ، 1998م . 9 - 1) .

ويمكن تفسير هذا الاتجاه في ضوء ما ذكرته مقدمة التحقيق نفسها من أن الصقلي سلك في شرحه مسلكاً وسطاً ، فلم يجعل من شرحه وسيلة لتسجيل الشواهد اللغوية المحضة كما فعل ابن جني ، ولم يوظفه لخدمة أهداف بلاغية أو منطقية كما فعل صاحب بن عباد وابن وكيع التنيسي والحاتمي ، وإنما اكتفى بمنهج تفسيري متوسط الغرض منه الإيضاح المباشر للمعنى .

وقد أشار محققو الكتاب إلى أن الصقلي لم يجعل شرحه معرضاً للرد على ابن جني أو غيره ، ولم يوظف شرحه وسيلة لبسط المسائل المنطقية والفلسفية كما فعل أبو العلاء المعري ، ولم يوظفه لخدمة أغراض خاصة بتسجيل الغريب والأمثال كما فعل غيره من الشراح (الصقلي ، 1998م . 4) .

وهذا الغياب النسبي للمصطلح البلاغي الصريح عند الصقلي لا يعني خلوق شرحه من الوعي بالصورة الفنية ، بل يعني أن وعيه بها ووعي ضماني يذوب في التفسير الدلالي العام ، ولا يرتقي إلى مستوى التنظير أو التصنيف الذي يميز الاتجاه البلاغي المشرقي ، كما سيتضح من نموذج الواحدي أدناه .

ثانياً : منهج الواحدي - التسمية الصريحة والحكم النقدي على الصورة :

على خلاف الصقلي ، يصرح الواحدي في مواضع عديدة من شرحه على أشعار الصبا (الشاميات) باستخدام مصطلحات " المجاز " و " الاستعارة " و " التشبيه " تسمية مباشرة وواعية ، بل يتجاوز ذلك أحياناً إلى إصدار حكم نقدي على جودة الصورة أو قبحها ، وأحياناً أخرى إلى تنظير صريح لآلية المجاز نفسه .

1- تنظير مبكر لآلية تسمية الشيء باسم غيره (أساس نظرية المجاز) :

في معرض شرحه لبيت يصف فيه الشاعر وضع يده على كبده من شدة الحزن ، يستطرد الواحدي إلى تقرير قاعدة لغوية عامة مفادها أن العرب تسمي الشيء باسم غيره إذا جاورت مصاحبته له ، ويمثل لذلك بتسمية فناء الدار باسم ما يجاوزه ، وتسمية موضع قضاء الحاجة باسم آخر ملازم له .

وهذا في حقيقته تنظير لآلية المجاز والانزياح الدلالي قبل أن يستعمل الواحد لفظ " المجاز " صراحة في مواضع لاحقة، إذ يبني عليه تفسير إضافة صفة اليد (الوثيقة) إلى الكبد مع أن الوسج في الحقيقة صفة لليد لا للكبد (الواحد ، 1999م . 7) .

2- مجموعة شواهد صفحة واحدة كثيفة في صفحة واحدة (ص 19) :

من اللافت أن صفحة واحدة من الشرح (ص19) بحسب النسخة المعتمدة تجمع ثلاث تصنيفات بلاغية صريحة متتالية ، مما يكشف عن كثافة الوعي البلاغي عند الواحد في تناوله لهذا المقطع تحديداً.

وفي شرحه لببيت " وَإِذَا سَحَابُهُ صَدَّ حُبِّ أِبْرَقَتْ عَلْقَمًا... تَرَكْتُ حَلَاوَةً كُلِّ حُبِّ عَلْقَمًا "، يقرر الواحد صراحة أن الشاعر استعار للصدود صورة السحابة المبرقة (الواحد ، 1999م . 19) .

وفي تعليقه على بيت " لَمْ تُجْمَعِ الْأَضْدَادُ إِلَّا لِتَجْعَلَنِي ... أَشَقَى مِنَ الْحُبِّ فِي الدُّنْيَا وَأَسْعَدَهُ "، يوضح الواحد أن الشاعر شبّه (دقة القامة ، رقة الخصر ، بياض الوجه ، سواد الشعر) في شخص المحبوبة بصفات الممدوح نفسه ، فيسمّي الأداة البلاغية (التشبيه) صراحةً ويحدد طرفيها (الواحد ، 1999م) 19 .

وفي شرحه لببيت " خَالَ السُّؤَالَ عَلَى النَّوَالِ مُدْرَجًا... فَأَجَابَهُ بِالْفِعْلِ قَبْلَ السُّؤَالِ "، يقرر أن وصف " النوال " بأنه " يدر " هو من قبيل المجاز والتوسع في التعبير لا الحقيقة ، إذ لا يوصف النوال حقيقة بأنه يدر ، وإنما أراد الشاعر بذلك تصوير تباعد الممدوح عن حاجة الناس إلى السؤال (الواحد ، 1999م . 19) .

وهذا التجاور بين ثلاث مصطلحات بلاغية (استعارة ، تشبيه ، مجاز) في صفحة واحدة يدل على أن الواحد لا يستعملها استعمالاً عرضياً نادراً ، بل يوظفها كأداة تحليل منهجية كلما اقتضاه موقع الشرح .

3- الاستعارة مقرونة بحكم نقدي (حسن / قبح) :

في وصف العيش بالخضرة مقابل " احمرار الموت "، يقرر الواحد بأن الشاعر استعار خضرة ثوب العيش من خضرة النبات مباشرة ، مبيّناً أن النبات الأخضر يوصف بالرطوبة والنعومة ، فتكون الاستعارة هنا موظفة لخدمة معنى دقيق لا لمجرد الزخرفة اللفظية (الواحد ، 1999م . 23) .

ومن أدقّ شواهد النقد البلاغي عنده : تعليقه على البيت الذي ينقل فيه المتنبي صفة "الشيب " من الفؤاد إلى الكبد ؛ إذ يصف الواحد هذا النقل بأنه استعارة مما يستقبح ، ويقارنها بنقل مماثل عند أبي تمام (نقل الشيب إلى الرأس من الفؤاد) ، مقررًا أن المتنبي أبعد في القبح لأنه نقل الشيب إلى الكبد ، وهي أبعد أعضاء الجسد عن موضع الشيب الحقيقي ، وهذا تقويم نقدي صريح يميّز بين درجات جودة الاستعارة الواحدة (الواحد ، 1999م . 25) .

4- الاستعارة لخدمة معنى تجريدي (الفخر والزمان) :

في بيت " لَنُورُ فَخْرِهِ فِي سَمَاءِ الْفَخْرِ مُشْتَرِقٌ...وَلَيْسَ فِيهِ فِي كُلِّ نَازِلَةٍ أَثَرٌ "، يقرر الواحد بأن الشاعر استعار لمعنى الفخر (وهو معنى مجرد لا حسي) صورة " السماء " ليصوّر منزلته الفكرية والمعنوية بعلوّ مكاني محسوس ، وهو استخدام للاستعارة في تجسيد المعنويات لا في وصف المحسوسات فحسب (الواحد ، 1999م . 26) .

5- الاستعارة القائمة على تشخيص المكان :

في وصف قطعة الفلاة الشاسعة " المهمة " ، حين يصفها الشاعر بأنها " تقاضي " السائر عنها بطول السير ، يقول الواحد صراحة : " وهذا استعارة " ، موضحاً أن المهمة صارت بمنزلة الطرف المطالب ، أي أن الاستعارة هنا قائمة على منح المكان صفة فاعل يطالب ويحاسب ، وهي صورة من صور تشخيص الجماد (الواحد ، 1999م . 27) .

وتتضح من ذلك أن الواحدي لا يكتفي - كما يفعل الصقلي - بتفسير المعنى العام للبيت ، بل يمرّ بخطوات تحليلية واعية متدرجة : تنظير آلية المجاز في أصل اللغة ، ثم تسمية الأداة البلاغية المحددة (مجاز / استعارة / تشبيه) في موقعها ، ثم أحياناً (حسن / قبح) بمقارنتها بنظائرها عند شعراء آخرين كأبي تمام ، عبر إصدار حكم قيمي عليها .

ثالثاً : الموازنة والانزياح :

إذا نظرنا إلى " الانزياح " بوصفه خروجاً عن المعيار اللغوي المألوف (الحقيقة) نحو الاستعمال الفني (المجاز) ، أمكن القول إن الشارحين يتفقان على إدراك وجود هذا الخروج في شعر المتنبي ، لكنهما يختلفان اختلافاً جوهرياً في طريقة التعامل معه ، وهو اختلاف يمكن تفصيله في ثلاثة مستويات :

1- مستوى الإدراك : يدرك الصقلي الانزياح ضمناً ويترجمه مباشرة إلى معنى بديل دون تسميته أو تصنيفه ، أما الواحدي فيدركه إدراكاً واعياً يصل أحياناً إلى حد التنظير لآلية حدوثه في اللغة (كما في شاهد ص 7) .

2- مستوى التسمية : لا يسمي الصقلي الأداة البلاغية بدقة ، بينما يسميها الواحدي (مجاز ، استعارة ، تشبيه) بحسب طبيعة كل صورة على حدة .

3- مستوى التقويم : لا يصدر الصقلي أحكاماً جمالية على الصورة ، بينما يقوم الواحدي بالاستعارة نقدياً (كما في حكمه بقبح استعارة " شيب الكبد ") ، بل ويقارنها بنظائرها عند شعراء آخرين ، بما يقترب من منهج النقد البلاغي المقارن .

وهذا الفارق قد لا يعكس بالضرورة تفاوتاً في الذوق الفني بين الشارحين بقدر ما يعكس تفاوتاً في الوظيفة التي أراد كل منهما أن يؤديها شرحه : فشرح الصقلي أقرب إلى الشرح التعليمي المباشر الموجز لفهم المعنى ، بينما شرح الواحدي أقرب إلى الشرح النقدي البلاغي الذي يدور فيه عناية الصورة الشعرية ذاتها ويحاكمها .

خاتمة البحث :

تكشف هذه الموازنة الموسّعة - المستندة إلى عدة شواهد مورّعة على الكتابين - أن الفارق بين المدرستين الأندلسية والمشرقية في التعامل مع المجاز والانزياح ليس فارقاً في درجة الوعي بالصورة الفنية ، بل فارق في الأداة المنهجية المستخدمة للتعبير عن هذا الوعي : تفسير معنوي ضمني عند الصقلي ، مقابل تنظير وتصنيف بلاغي صريح ونقد جمالي مقارن عند الواحدي .

المبحث الرابع : البديع بين الإسراف الأندلسي والاعتدال المشرقي : ابن الإفيلي نموذجاً أندلسياً مقابل التبريزي نموذجاً مشرقياً :

تمهيد :

يُعدّ علم البديع من أكثر أبواب البلاغة العربية ارتباطاً بالذائقة الفردية للشارح .

ومن هنا اكتسبت الموازنة بين شرح ابن الإفيلي الأندلسي (ت 441 هـ) وشرح الخطيب التبريزي المشرقي (ت 502 هـ) لديوان أبي الطيب المتنبي أهمية خاصة ؛ إذ يمثل الشرحان مدرستين جغرافيتين وذهنيتين مختلفتين في التعامل مع الصنعة البديعية .

وتجدر الإشارة إلى أن النسخة المحقّقة المستخدمة من شرح التبريزي تجمع طبقتين من النص : تعليقات التبريزي نفسه (يُرمز إليها بالرمز " هـ ") ، وتعليقات منقولة عن أبي الفتح ابن جني في كتابه المعروف بـ " الفسر " (يُرمز إليها بالرمز " ح ") ، أدرجت للمقارنة لا لأنها من صلب كلام التبريزي ؛ وقد حُرّص في الجداول الآتية على التمييز بين الطبقتين حين يقتضي السياق ذلك ، اتقاءً لنسبة كلام ابن جني إلى التبريزي خطأ .

أولاً : ملامح عامة لمنهج كل من الشارحين :

يتَّجه ابن الإفليلي في شرحه مذهباً مترادفاً ؛ فهو يشرح المعنى الكلي بلاغياً - تفسيراً منشأً - بأسلوب أدبي يحاكي كثافة الصنعة .

أما التبريزي ، فيغلب عليه الطابع اللغوي النحوي المعجمي ، مع إيجاز ظاهر في المعنى البلاغي ، وإن له أحياناً استطراداً لغوياً أو حكاثياً (كحكاية أبي عمرو بن العلاء) ، لا عناية له بالصنعة البديعية ذاتها .

ثانياً : المحسنات البديعية اللفظية – الجناس :

في بيت " وَإِنِّي وَإِنْ كَانَ الدِّفِينُ حَبِيبَهُ ... حَبِيبٌ إِلَى قَلْبِي حَبِيبٌ حَبِيبِي " (بيت 3) ، وهو جناس اشتقاق (تكرار جذر " حب " بأربع صور) ، يعلّق التبريزي بإيجاز مباشر دون إشارة صريحة إلى الجناس : " يلزمني أن أحب من أحب ، والمدفون إن كان حبيباً فهو حبيب إلى قلبي لأجل سيف الدولة " ، وهو إيجاز شديد لا يذكر مصطلح الجناس .

في المقابل ، يفصّل ابن الإفليلي بأسلوب أدبي مطوّل : " وإن كان الدفين خاصة بمحبة سيف الدولة ، كان " أقعد منه بالتوسل لفقده ... فكان من هو أحب إلى قلبي حبيباً " إليّ لشدة توجّعي بيني وبينه ، وهو إسهاب مترادف لا إشارة فيه للجناس أيضاً .

وفي بيت " وَمَنْ سَرَّ أَهْلَ الْأَرْضِ ثُمَّ بَكَى أَسَى... بَكَى بَعُيُونِ سِرِّهَا وَقُلُوبِ " (بيت 2) ، وهو جناس تام بين الفعل " سرى " والاسم " سرها " ، يعلّق التبريزي بجملة موجزة موضحاً أن المعنى " يلزم كل أحد ممن سرى أن يساعد على بكائي " ، دون أي إشارة للجناس ، مقتصرًا على معنى لغوي معجمي .

أما ابن الإفليلي ، فيوسّع الشرح بصياغة إنشائية : " فهم يرحمونه بإحسانه ، ويكرهون الحزن عليه ؛ فكيف يفرحون عند مصيبتهم ، ويؤلمهم قلوبهم ؟ " ، وهي جملة تفصيلية دون إشارة للجناس أيضاً .

وفي بيت " تَمَلَّكَهَا الْآتِي كَمَا تَمَلَّكَكَ سَالِبٌ...وَفَارَقَهَا الْمَاضِي فِرَاقَ سَلِيبِ " (بيت 6) ، وهو جناس اشتقاق (سالب / سليب من جذر واحد) ، يستشهد التبريزي بمنظومة أخرى : " وإني في المنية ما ... أطالب الهالكين ، وسبقها الباقيون كما تركها الماضون " ، وهو استشهد بمنظومة أخرى صياغتها فيها جناس خفي لكن دون تسمية الجناس .

ويوسّع ابن الإفليلي بأسلوب متكافئ : " تجمل فيها الناشئ كما تجمل الوارث ، فطالب وفارقها الخارج فقد سلب فراق يائس " ، مؤكّداً الجناس بمرادفات (وارث / طاعن) .

وفي بيت " فَعَوَّضَ سَيْفَ الدَّوْلَةِ الْأَجَرَ إِنَّهُ... مُثَابٌّ مِنْ أَجْلِ مُثِيبِ " ، وهو جناس اشتقاق (مثاب / مثيب) ، يورد شرح نحوي مذهبي : " الهاء في (أنه) تعود على الأسر ... والمثاب مصدر بمنزلة الثواب " ، وهو إغفال كامل للجناس .

والذي يتضح من هذه الشواهد أن التبريزي ، حتى حين يقارن كلام الشاعر بشاهد شعري آخر ، لا يفعل ذلك اختفاءً بالجناس أو تجديداً للمعنى العام فحسب ؛ في حين لا يفوت ابن الإفليلي فرصة توسيع الترادف اللفظي في كل موضع يفعل فيه الشاعر جناساً ، تقريباً .

ثالثاً : المحسنات البديعية المعنوية :

1- الطباق :

في شطر البيت " مُنِعْنَا بِهَا مِنْ جِيئَةٍ وَدُھُوبِ " ، وهو طباق إيجاب (المجيء / الذهاب) ، يعلّق التبريزي بتفسير فلسفي - منطقي بحث دون إشارة للطباق : " لو كان قبلنا المجيء أمكننا الذهاب ؛ لأن

الله سبحانه بنى الدنيا على الكون والفساد ، ولم يخصّها بأحدهما ، إذ ليس في الحكمة ذلك " ، وهو تعليل فلسفي عميق يمرّ على البنية الطباقية دون تسميتها .

وفي بيت " وَلَوْلَا أَيَادِي الدَّهْرِ فِي الجَمْعِ بَيْنَنَا ... لَمَا كَانَ لِلْعَيْشِ بَعْدَكُمْ طَعْمٌ " ، وهو طباق ضمني (الجمع مقابل التفريق المضمّر) ، يستورد التبريزي حكاية عن أبي عمرو بن العلاء وأبي الخطاب الأخفش حول جمع " أيادي " ، وهو استطراد لغوي بحت ؛ ثم يرد في هامش الطبقة الثانية (المنسوبة لأبي الفتح لا للتبريزي نفسه) : لولا إحسانه بالجمع بيننا لما شعرها بزهوة في قوافٍ يعسر ؛ أي : تارة حسن الدهر وتارة سيئ " ، وهذه الجملة الأخيرة (المنسوبة إلى أبي الفتح) هي الأقرب لملامسة الطباق ، دون تسميتها .
أما ابن الإفليلي فيربط الجمع بين أهل الصفاء والود ، ويشير لذلك بتفريق ألفاظ متقابلة ، جامعاً ما شئت وما تشئت .

وفي بيت " فَإِنْ يَكُنْ نَفْيُ الْحَاسِدِينَ عَنِ الْعَلَا ... فَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا السُّكُوتُ أَوْ التَّرْكُ " ، وهو طباق إيجاب صريح (السكوت / الترك) ، يقتصر شرح التبريزي على تفسير لغوي معجمي بحت لأصل الكلمتين دون التعرض للطباق ، بينما يوسّع ابن الإفليلي الشرح بجملتين متوازيتين تُظهران طرفي الطباق لفظياً .

2- المقابلة :

في بيت " إِذَا اسْتَقْبَلَتْ نَفْسُ الْكَرِيمِ مُصَابَهَا ... بِخُبْثٍ ثَنَتْ فَاسْتَدْبَرَتْهُ بِطِيبٍ " ، وهو مقابلة (استقبال / استدبار ، خبث / طيب) ، يقتصر شرح التبريزي على تفسير للفظين دون أي إشارة لبنية المقابلة ، بينما يوسّع ابن الإفليلي بمقابلة نثرية سردية موازية للبيت ، توضح أن الكريم إذا استقبله المصاب بالاستنكار والإظهار للجزع فيه ، فإنه يهرب عليه من طريق عادٍ .

وفي بيت " فَإِنْ يَكُنِ الْعَلَقُ النَّفِيسَ فَقَدْتُهُ ... فَمَنْ كَفَّ مُضْمِرٌ مِثْلَهُ تَلَفٌ " ، وهو مقابلة ضمنية (فقد/بذل / إمساك ، إتلاف) ، يورد التبريزي شرحاً نحوياً بحثاً لتقدير الضمير المحذوف ، دون أي تعرض للمقابلة البلاغية ، بينما يوسّع ابن الإفليلي بمقابلة نثرية موازية للبيت .

4- المبالغة :

من أهم ما لوحظ أن ابن الإفليلي هو الشارح الوحيد الذي صرّح صراحةً باسم محسّن معنوي مبالغة ، في تعليقه على قول المتنبي في وصف السماح بأنه قد يهون على الشعب من الفقر ، إذ يقول : " إن سيفه إظهار لجوده على أنه من كل الحوادث ، وهذا إفراط في المبالغة " .

رابعاً : ملاحظة مقارنة دقيقة : ظاهرة الأضداد عند الشارحين :

من أطرف نتائج هذه الموازنة أن كلا الشارحين ذهب إلى ظاهرة " الأضداد " اللغوية (الكلمة الواحدة التي تحمل معنيين متضادين في السياق نفسه) في الأبيات (7 - 8) ، لكن كلاً منهما علّقها على كلمة مختلفة : يعلّق ابن الإفليلي على كلمة " شعوب " (اسم الموت) بأنها من الأضداد ؛ ويعلّق التبريزي على كلمة " الغابرون " (الباقون) بأنها من الأضداد .

وهذا يكشف أن التبريزي لا يخلو من رصد لغوي دقيق لظواهر شبيهة بالطباق (تضاد المعنى داخل اللفظة الواحدة) ، إلا أن اهتمامه بها معجمي محض (تحديد المعنيين المتضادين للفظ) ، لا بلاغي (لا يربطها بمصطلح الطباق ولا يستثمرها جمالياً) ، بخلاف ابن الإفليلي الذي يوظف الملحوظة نفسها في سياق تفسيري أكثر تحقّقاً وتصويراً .

خامساً : خلاصة الموازنة :

يتضح من هذا الاستقصاء، شاهداً بشاهد، أن مصطلحي " الإسراف الأندلسي " و " الاعتدال المشرقي " لا يعكسان تفاوتاً في معرفة المحسّن البديعي، بل تفاوتاً في وظيفة الشرح ذاتها، وفي طريقة التعبير عنه : فشرح ابن الإفليلي يحتفي بالصورة البلاغية ويعيد إنتاجها نثراً أدبياً حين يتفوّق على وضوح اللفظ والمعنى

والإعراب عند التبريزي، حتى لو مثل ذلك على حساب دقة اللفظ الاشتقاقي، مقابل شرح وظيفته الأولى قضاء اللفظ والمعنى والإعراب عند التبريزي دون اكتفاء بالصورة البديعية أو استجلاء لجمالياتها، وهو ما يُعبر عنه في هذا المبحث بمصطلحي "الإسراف الأندلسي" و "الاعتدال المشرقي".

خاتمة البحث ونتائجه :

أسفرت الموازنات التطبيقية التي أجراها هذا البحث بين شروح المشرق والأندلس عن مجموعة من النتائج الجوهرية التي تتجاوز مجرد رصد الفروق المصطلحية أو الأسلوبية، لتكشف عن تباين أعمق في فلسفة الشرح ووظيفته :

أولاً : في مبحث نظرية النظم : تبين أن كلاً من ابن جني (المشرقي) وابن الإفيلي (الأندلسي) يمارسان مبادئ التحليل النظمي (تحليل الحذف والإضمار والتقديم والتأخير وأثرها في المعنى) تطبيقاً ، قبل أن تُصاغ هذه المبادئ نظرياً على يد عبد القاهر الجرجاني .

بيد أن الفارق بينهما يكمن في مستوى التحليل : إذ يُعنى ابن جني بتفصيل البنية الإعرابية الدقيقة داخل البيت الواحد ويصرّح بلفظ " النظم " كمعيار نقدي ، بينما يوسّع ابن الإفيلي الخطاب ليشمل العلاقات بين الأبيات (التوكيد والتصاعد الدلالي) معبراً عنها بعبارات وظيفية مرادفة دون تصريح بالمصطلح .

وهذا يعكس خلفية كل منهما : نحوية عند ابن جني ، وأدبية إنشائية عند ابن الإفيلي ، مع اشتراكهما في جوهر الرؤية النظمية .

ثانياً : في مبحث الصورة البلاغية : أظهرت الموازنة بين ابن سيده (الأندلسي) والمعري (المشرقي) اتفاقاً في الوعي المصطلحي الصريح (تسمية التشبيه والاستعارة) ، وافتراقاً في درجة التركيب ونوع الإدراك الحسي الموظف .

فابن سيده يميل إلى الصور البسيطة والتسويق بالاستشهاد بنظائر من القرآن والحديث والشعر ، أداة مستمدة من خلفيته اللغوية -المعجمية لتفسير الصورة .

في المقابل ، يبني المعري صوراً مركبة متعددة الطبقات ، ويربط التشبيه أحياناً بالإدراك البصري لشكل الحرف الخطي (وهي ظاهرة فريدة في شروحه) ، متأثراً بنزعه الفلسفية المنطقية التي تُعنى بالتركيب والتسلسل الاستدلالي .

ثالثاً : في مبحث المجاز والانزياح : كان التباين أكثر حدة بين الصقلي (المغربي) والواحد (المشرقي) ، إذ يمرّ الصقلي على الانزياح اللغوي مروراً ضمنياً ، فيترجمه مباشرة إلى معنى بديل دون تسميته أو تصنيفه ، مكتفياً بالشرح التفسيري التعليمي .

أما الواحد ، فيدرك الانزياح إدراكاً واعياً ، يصل أحياناً إلى حد التنظير لآلية المجاز في أصل اللغة ، ثم تسمية الأداة البلاغية بدقة (مجاز ، استعارة ، تشبيه) ، بل وإصدار حكم نقدي جمالي عليها (حسن /قبح) ومقارنتها بنظائرها عند شعراء آخرين كأبي تمام .

وهذا يظهر تأثر الواحد الواضح بأدوات النقد البلاغي المشرقي الذي بلغ ذروته النظرية على يد عبد القاهر الجرجاني ، وهو معاصر متأخر للواحد .

رابعاً : في مبحث البديع : أظهرت الموازنة بين ابن الإفيلي (الأندلسي) والتبريزي (المشرقي) أن الفارق بينهما ليس في الإمام بالمصطلحات البديعية (فكلاهما لا يصرّح بها في الغالب) ؛ بل في الأسلوب ووظيفة الشرح .

فابن الإفيلي يتّجه بشرحه إلى إبداع مواز، يعيد إنتاج الصنعة البديعية للبيت نثرًا عبر التوسّع والترادف وبناء المقابلات النثرية ، محاكياً كثافة البناء الشعري .

في المقابل ، يظل شرح التبريزي أداة مساعدة محايدة ، وظيفتها الأولى قضاء اللفظ والإعراب والرواية ، دون اختفاء بالصورة البديعية أو استجلاء لجمالياتها ، وهو ما عبّر عنه هذا الفصل بمصطلحي "الإسراف الأندلسي" و " الاعتدال المشرقي " .

ويمكن القول إجمالاً إن الفروق بين المدرستين المشرقية والأندلسية في التعامل مع البلاغة التطبيقية ليست فروقاً في درجة الوعي بالصناعة الفنية ، بل فروقاً في الوظيفة التي أراد كل شارح أن يؤديها شرحه ، والمرجعية العلمية التي انطلق منها : فالمدرسة المشرقية (باستثناء المعري الذي يمثل حالة فلسفية خاصة) تغلب عليها النزعة النحوية - اللغوية التحليلية ، مع حضور واضح للمصطلح البلاغي والنقد المقارن (كما عند الواحدي) ، بينما تغلب على المدرسة الأندلسية - المغربية نزعة تفسيرية - بيانية ، تُعنى بإعادة إنتاج المعنى نثرًا موازيًا ، وتُذيب الوعي البلاغي في شرح المعنى العام دون تصنيف أو تقويم في قالب نثري للصورة ذاتها .

وتبقى هذه النتائج مرهونة بطبيعة العينة المستقرأة من الديوان ، وتستدعي توسيعاً مستقبلياً ليشمل نماذج شعرية أخرى ومحسّنات بلاغية أخرى لم يظهر لها شواهد كافية في هذا البحث ، ولتشمل شروحاً أخرى كشرح الصاحب بن عباد وابن وكيع التنيسي والحاتمي والعكبري والبرقوقي ، بغية التحقق من ثبات هذه النتائج وإطّرادها في عموم ديوان المتنبي .

قائمة المصادر والمراجع :

1. ابن جني ، أبو الفتح عثمان ، (2004 م) ، الفسر (شرح ابن جني الكبير على ديوان المتنبي) ، تحقيق رضا رجب ، دمشق : دار الينابيع .
2. ابن سيده ، أبو الحسن علي بن إسماعيل (1976 م) ، شرح المشكل من شعر المتنبي ، تحقيق مصطفى السقا وحامد عبد المجيد ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب .
3. ابن الإفليلي ، أبو عبد الله محمد بن يوسف ، (1992 م) ، شرح معاني شعر المتنبي (السفر الأول ، تحقيق مصطفى عليان ، بيروت : مؤسسة الرسالة .
4. أبو الحسين الصقلي المغربي ، علي بن عبيد الله (1998 م) ، التكملة وشرح الأبيات المشككة من ديوان أبي الطيب المتنبي ، تحقيق ماجد الجعافرة وآخرون ، إربد : منشورات جامعة اليرموك .
5. أبو العلاء المعري ، أحمد بن عبد الله ، (1992 م) ، معجز أحمد ، تحقيق : عبد المجيد دياب ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للكتاب .
6. الأدبي ، عبد الغني شوقي موسى (2019 م) ، (التأويل النحوي عند ابن جني في) الفسر " ، مجلة لساننا (Lisanuna) أنشيه : جامعة الرانيري الإسلامية الحكومية . متاح على : <https://jurnal.ar-raniry.ac.id/index.php/lisanuna/article/view/67435>
7. التبريزي ، الخطيب أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب ، (2000 م) ، الموضح في شرح ديوان أبي الطيب المتنبي ، تحقيق : مصطفى السقا وآخرون ، القاهرة : دار المعارف .
8. الجرجاني ، عبد القاهر (2004 م) ، دلائل الإعجاز ، تحقيق : محمود محمد شاكر ، القاهرة : مكتبة الخانجي .
9. الواحدي النيسابوري ، أبو القاسم علي بن أحمد ، (1999 م) ، شرح الواحدي لديوان المتنبي ، تحقيق : ياسين الأيوبي وقصي الحسين ، بيروت : دار الرائد العربي .

Disclaimer/Publisher's Note: The statements, opinions, and data contained in all publications are solely those of the individual author(s) and contributor(s) and not of JSHD and/or the editor(s). JSHD and/or the editor(s) disclaim responsibility for any injury to people or property resulting from any ideas, methods, instructions, or products referred to in the content.